

لمحات من أطول سور القرآن بعد البقرة

سورة النساء .. وصف رباني متقن لبناء المجتمع الإسلامي وحمايته



أن يواجه ظروف الحياة وأطوارها، وهي ليست ثابتة من حوله وفي المنهج الرباني الموضوع لهذا الإنسان، ذات الخصائص، بحكم أنه صادر من المصدر الذي صدر منه الإنسان، ومودع خصائصه ذاتها، ومعد للعمل معه إلى آخر الزمان.

وهكذا يستطيع ذلك المنهج، وتستطيع هذه النصوص، أن تلتقط الفرد الإنساني، وأن تلتقط المجموعة الإنسانية، من أي مستوى، ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد، فينتهي به وبها إلى القمة السامقة.. إنه لا يريده ولا يردها أبدا إلى الوراء، ولا يهبط به أو بها أبدا إلى درجة أسفل في المرتقى، كما أنه لا يضييق به ولا بها، ولا يعجز عن رفعة ورفعها، أيا كان مكانه أو مكانها من السفح السحيق!

المجتمع البدائي المتخلف كالمجتمع العربي في الجاهلية القديمة، والمجتمع الصناعي المتحضر، كالمجتمع الأوروبي والأمريكي في الجاهلية الحديثة..كلهما يجد في المنهج الرباني والنصوص القرآنية مكانة، ويجد من يأخذ بيده من هذا المكان، فيرقى به في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة، التي حققها الإسلام، في فترة حية من فترات التاريخ الإنساني. إن الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ، إنما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر.. وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء. ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم، يأخذ البشر عن بشر مثلهم: والتصورات والمبادئ، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد. وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها. الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر، حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله.

والإسلام هو منهج الحياة الوحيد، الذي ينحصر فيه البشر من عبودية البشر. لأنهم يتلقون التصورات والمبادئ، والموازين والقيم، والشرائع والقوانين، والأوضاع والتقاليد، من يد الله سبحانه - فإذا أحقوا رؤوسهم فإنما يحنونها لله وحده، وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده. وإذا خضعوا للنظام فإنما يخضعون لله وحده.ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد، حين يصبحون كلهم عبيدا لله بلا شريك. وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية - في كل صورة من صورها - وبين الإسلام، وهذه السورة تتولى رسم مفرق الطريق بالدقة وبالوضوح الذي لا تبقى معه ريبه لمستريب. ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم، كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة، وإما إبطال حالة قائمة.. وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة:«البرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».. ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا. وفي هذا تكمن المعجزة.فهذه النصوص التي جاءت لتواجه أحوالا بعينها، هي ذاتها التي تواجه الجماعة الإنسانية، في أي طور من أطوارها.والمنهج الذي التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية، هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة - أيا كان موقعها على الدرج الصاعد - ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة، التي بلغ إليها بالمجموعة الأولى. يوم التقطها من ذلك السفح السحيق!

ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلي، من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته، كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التي يريد أن ينشئها، وأن ينيئها في المجتمع الجديد. فماداً نحن واحدون - في هذه السورة - من ملامح المجتمع الجاهلي التي ظلت راسبة في الجماعة المسلمة، منذ أن التقطها المنهج الرباني من سفح الجاهلية؟ وماذا نحن واحدون من الملامح الجديدة التي يراد إنشاؤها في المجتمع الإسلامي الجديد وتثبيتها!

إننا نجد مجتمعاً تؤكل فيه حقوق الأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأهل والأولياء والأوصياء، ويستبدل الخبيث منها بالطيب، ويعمل فيها بالإسراف والطمع، خيفة أن يكبر اليتامى فيستردها! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال، ليتخذهن الأولياء زوجات، طمعا في ما لهن لا رغبة فيهن! أو يعطين أطفالا لأولياء للفرص ذاته !

المتأخر.. ثم ينالنا الدهش كذلك بالنقلة البعيدة السامقة الرفيعة التي انتهى إليها هذا المنهج العجيب الفريد، بالجماعة المسلمة. وقد التقطها من ذلك السفح الهابط، الذي تمثلته تلك الرواسب، فارتقى بها في ذلك المرتقى الصاعد إلى تلك القمة السامقة.. القمة التي لم ترتق إليها البشرية قط، إلا على حذاء ذلك المنهج العجيب الفريد المنهج الذي يملك وحده أن يلتقط الكينونة البشرية من ذلك السفح، فيرتقي بها إلى تلك القمة، رويدا رويدا، في يسر ورفق، وفي ثبات وصبر، وفي خطو متناسق موزون !

والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية، يتجلى له جانب من حكمة الله في اختيار «الأميين» في الجزيرة العربية، في ذلك الحين، لهذه الرسالة العظيمة.. حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة، بكل مقوماتها الاعتقادية والتصورية، والعقلية والفكرية، والأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ليعرف فيهم أثر هذا المنهج، ولينبئ فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة، التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر، في كل ما عرفت الأرض من مناهج، وليرتسم فيهم خط هذا المنهج، بكل مراحل - من السفح إلى القمة - وبكل ظواهره، وبكل تجاربه، ولترى البشرية - في عمرها كله - أين تجد المنهج الذي يأخذ بيدها إلى القمة السامقة، أيا كان موقفها في المرتقى الصاعد سواء كانت في درجة من درجاته، أم كانت في سفحه الذي التقط منه «الأميين» !

إن هذا المنهج ثابت في أصوله ومقوماته، لأنه يتعامل مع «الإنسان».ولإنسان كينونة ثابتة، فهو لا يتبدل منها كينونة أخرى. وكل التحورات والتطورات التي تلاس حياته لا تغير من طبيعته، ولا تبدل من كينونته، ولا تحوله خلقاً آخر. إنما هي تغيرات وتطورات سطحية، كالأماج في الخضم، لا تغير من طبيعته المائية، بل لا تؤثر في تياراته التحتية الدائمة، المحكومة بعوامل طبيعية ثابتة !

ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة، تلك الكينونة البشرية الثابتة.ولأنها من صنع المصدر الذي صنع الإنسان، فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة، وأطوارها المتجددة، بنفس المرونة التي يواجه بها «الإنسان» ظروف الحياة المتغيرة، وأطوارها المتجددة، وهو محافظ على مقوماته الأساسية.. مقومات الإنسان.

وفي «الإنسان» هذا الاستعداد، وهذه المرونة، وإلا ما استطاع

خاص بها، تبرز فيه ملامحها، وتتميز به شخصيتها. كالكائن الحي المميز السمات واللامح، وهو - مع هذا - واحد من جنسه على العموم!

ونحن نرى في هذه السورة - ونكاد نحس - أنها كائن حي، يستهدف غرضا معينا، ويجهد له، ويتوخى تحقيقه بشتى الوسائل..والفكرات والآيات والكلمات في السورة، هي الوسائل التي تبلغ بها ما تريد! ومن ثم نستشعر تجاهها - كما نستشعر تجاه كل سورة من سور هذا القرآن - احساس التعاطف والتجاوب مع الكائن الحي، المعروف السمات، المميز الملامح، صاحب القصد والوجهة، وصاحب الحياة والحركة، وصاحب الحس والشعور!

إن السورة تعمل بجد وجهد في محو ملامح المجتمع الجاهلي - الذي منه التقطت المجموعة المسلمة - ونبذ رواسبه، وفي تكيف ملامح المجتمع المسلم، وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه، وجليه شخصيته الخاصة.كما تعمل بجد وجهد في استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة، وذلك ببيان طبيعة المنهج الذي منه انبثقت هذه الكينونة المميزة، والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله - من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود - وأعدائه المتميعين فيه - من ضعاف الإيمان والمنافقين - وكشف وسائلهم وحيلهم ومكايدهم، وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم. مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحدده، وتصبه في القالب التنفيذي المضبوط.

وفي الوقت ذاته تلمح رواسب الجاهلية، وهي تتصارع مع المنهج الجديد، والقيم الجديدة، والاعتبارات الجديدة. ونرى ملامح الجاهلية وهي تحاول طمس الملامح الجديدة الوضوبية الجميلة. ونشهد المعركة التي يخوضها المنهج الرباني بهذا القرآن في هذا الميدان. وهي معركة لا تقل شدة ولا عمقا ولا سعة، عن المعركة التي يخوضها في الميدان الآخر، مع الأعداء الراصدين له والأعداء المتميعين فيه!

وحين ندقق النظر في الرواسب التي حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلي الذي منه جاء، والتي تعالج هذه السورة جوانب منها - كما تعالج سسور كثيرة جوانب أخرى - قد ينالنا الدهش لعمق هذه الرواسب، حتى لنظّل تغالب طوال هذه الفترة التي رجحنا أن آيات السورة كانت تنتزل فيها.. ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت

سورة النساء مدنية، وهي أطول سور القرآن - بعد سورة البقرة - وترتيبها في النزول بعد سورة الممتحنة، التي تقول الروايات: إن بعضها نزل في غزوة الفتح في السنة الثامنة للهجرة، وبعضها نزل في غزوة الحديبية قبلها في السنة السادسة.

ولكن الأمر في ترتيب السور حسب النزول - كما بينا في مطالع الكلام على سورة البقرة في الجزء الأول - ليس قطعيا، كما أن السورة لم تكن تنزل كلها دفعة واحدة في زمن واحد. فقد كانت الآيات تنتزل من سور متعددة، ثم يأمر النبي -صلى الله عليه وسلم - بوضع كل منها في موضعه من سورة بذاتها والسورة الواحدة - على هذا - كانت تظل «مفتوحة» فترة من الزمان تطول أو تقصر وقد تمتد عدة سنوات وفي سورة البقرة كانت هناك آيات من أوائل ما نزل في المدينة، وآيات من أواخر ما نزل من القرآن.

وكذلك الشأن في هذه السورة فمنها ما نزل بعد سورة الممتحنة في السنة السادسة وفي السنة الثامنة كذلك. ولكن منها الكثير نزل في أوائل العهد بالهجرة.والمنتظر - على كل حال - أن يكون نزول آيات هذه السورة قد امتد من بعد غزوة أحد في السنة الثالثة الهجرية، إلى ما بعد السنة الثامنة، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة.

ونذكر على سبيل المثال الآية الواردة في هذه السورة عن حكم الزانيات: «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت، حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا».. فمن المقطع به أن هذه الآية نزلت قبل أية سورة النور التي بينت حد الزنا: «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين».. وهذه الآية الأخيرة نزلت بعد حديث الفك في السنة الخامسة [أو في السنة الرابعة على رواية] فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حين نزلت: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا»... إلخ. وكان السبيل هو هذا الحكم الذي تضمنته آية النور.

وفي السورة نماذج كثيرة كهذا النموذج، تدل على تواريخ نزولها على وجه التقريب على النحو الذي بيناه في مطالع الكلام عن سورة البقرة.

هذه السورة تمثل جانبا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي، وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع. وتعرض نموذجا من فعل القرآن في المجتمع الجديد، الذي انبثق أصلا من خلال نصوصه، والذي نشأ ابتداء من خلال المنهج الرباني. وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج في تعامله مع الكائن الإنساني، كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الرباني.. تفاعله معه وهو يقود خطاه في المرتقى الصاعد، من السفح الهابط، إلى القمة السامقة.. خطوة خطوة، ومرحلة مرحلة.. بين تيارات المطامع والشهوات والمخاوف والرغائب، وبين أشواق الطريق التي لا تخلو منها خطوة واحدة، وبين الأعداء المتربصين على طول الطريق الشائك!

ونرى هنا مواجهة القرآن لكل الملبسات المحيطة بنشأة الجماعة المسلمة في المدينة، وبيان طبيعة المنهج الرباني الذي تنشأ الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي، وفي حماية يقوم عليها التصور الإسلامي، والقيم والموازين التي تنبثق من هذا التصور، وإبراز التكاليف التي يقتضيها النهوض بهذه الأماسة في الأرض، وتصوير طبيعة أعداء هذا المنهج وأعداء هذه الجماعة التي تقوم عليه في الأرض، وتحذيرها من وسائل أولئك الأعداء ووسائلهم، وبيان ما في عقائدهم من زيف وانحراف، وما في وسائلهم من خسة والتواء، فكذلك نرى القرآن - في هذه السورة - يواجه جملة هذه الملبسات والحقائق.

ولملاحمها المميزة، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعا..ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام

حجة زمانه في علم الجرح والتعديل ومصطلح الحديث

العلامة الشيخ الألباني محدث العصر .. والمهاجر إلى الله

العلمية الكثرة. 11) زار الكويت والإمارات وألقى فيها محاضرات عديدة، وزار أيضا عددا من دول أوروبا، والتقى فيها بالجاليات الإسلامية والطلبة المسلمين، وألقى دروسا علمية مفيدة. 12) للشيخ مؤلفات عظيمة وتحقيقات قيمة، ربت على المنة، وترجم كثير منها إلى لغات مختلفة، وطبع أكثرها طبعات متعددة ومن أبرزها، إرواء الغليل في تخریج أحاديث منار السبيل، وسلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، وصفة الجنة للاختبار لجائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية منح الجائزة عام 1419هـ/1999، وموضوعها «الجهود العلمية التي عنيت بالحدیث النبوی تحقیقا وتخریجا ودراسة» لفصلية الشيخ محمد ناصر الدين الألباني السوري الجنسية، تقديرا لجهوده القيمة في خدمة الحديث النبوي تخریجا وتحقیقا ودراسة وذلك في كتبه التي تربو على المئة.

السلفية في بنارس «الهند»، أن يتولى مشيخة الحديث، فاعترض عن ذلك لصعوبة اصطحاب الأهل والأولاد بسبب الحرب بين الهند وباكستان آنذاك. 5) طلب إليه معالي وزير المعارف في المملكة العربية السعودية الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ عام 1388 هـ أن يتولى الإشراف على قسم الدراسات الإسلامية العليا في جامعة مكة، وقد حالت الظروف دون تحقيق ذلك. 6) اختير عضواً للمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من عام 1395 هـ إلى 1398 هـ 7) لبي دعوة من اتحاد الطلبة المسلمين في أسبانيا، وألقى محاضرة مهمة طُبعت فيما بعد بعنوان «الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام». 8) زار قطر وألقى فيها محاضرة بعنوان «منزلة السنة في الإسلام». 9) انتدب من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله- رئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء للدعوة في مصر والمغرب وبريطانيا للدعوة إلى التوحيد والاعتصام بالكتاب والسنة والمنهج الإسلامي الحق. 10) دعى إلى عدة مؤتمرات، حضر بعضها واعتذر عن كثير بسبب انشغالاته

الحديث في نحو العشرين من عمره متأثراً بأبحاث مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- وكان أول عمل حديثي قام به هو نسخ كتاب «المغني عن حمل الأسفار» في تخریج ما في الإحيا من الأخبار، للحافظ العراقي -رحمه الله- مع التعليق عليه.

كان ذلك العمل فاتحة خير كبير على الشيخ الألباني حيث أصبح الاهتمام بالحديث وعلومه شغله الشاغل، فأصبح معروفاً بذلك في الأوساط العلمية بدمشق، حتى إن إدارة المكتبة الظاهرية بدمشق خصصت غرفة خاصة له ليقوم فيها بأبحاثه العلمية المفيدة، بالإضافة إلى منحه نسخة من مفتاح المكتبة حيث يدخلها وقتما شاء، أما عن التأليف والتصنيف، فقد ابتدأهما في العقد الثاني من عمره، وكان أول مؤلفاته الفقهية المبنية على معرفة الدليل والفقه المقارن كتاب «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، وهو مطبوع مراراً، ومن أوائل تخریجه الحديثية المنهجية أيضاً كتاب «الروض النضير في ترتيب وتخریج معجم

العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني هو أحد أبرز العلماء المسلمين في العصر الحديث الذي تخصص في علوم الحديث، ويعتبر الشيخ الألباني من علماء الحديث البارزين المتهردين في علم الجرح والتعديل، والشيخ الألباني حجة في مصطلح الحديث وقال عنه العلماء المحدثون إنه أعاد عصر ابن حجر العسقلاني والحافظ ابن كثير وغيرهما من علماء الجرح والتعديل.

ولد الشيخ محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني عام 1333 هـ الموافق 1914 في مدينة أشقودرة عاصمة دولة ألبانيا - حينئذ - عن أسرة فقيرة متدبنة يغلب عليها الطابع العلمي، فكان والده مرجعاً للناس يعلمهم ويرشدهم. هاجر صاحب الترجمة بصحية والده إلى دمشق الشام للإقامة الدائمة فيها بعد أن انحرف أحمد زاغو (ملك ألبانيا) بجلاده نحو الحضارة الغربية العلمانية.

أتم العلامة الألباني دراسته الابتدائية في مدرسة الإسعاف الخيري في دمشق بتفوق، نظراً لرأي والده الخاص في المدارس